

تشبثوا بالعارضة

الأب رافائيل نويكا

دعوني أعود إلى مقولة: "أبقِ ذهنك في الجحيم ولا تيأس". حين سمع الأب [القديس] صفروني هذه العبارة للمرة الأولى، أدرك على الفور أنها كلمة إلهية لم تُعطَ من أجل القديس سلوان وخلاصه وحده، بل من أجل جيلٍ بأكمله، لمواجهة اليأس الذي كان قد بدأ يتجذّر في عالمٍ غارقٍ في القنوط، تمامًا كما اختبره هو بنفسه بعد الحرب العالمية الأولى. أودُّ أن أضيف شيئًا حول هذا الموضوع. رأيتُ الكثير من الناس يتوتّرون إلى حدٍّ كبيرٍ عندما يقول الله "لا تيأس"، لأنهم أصلًا رازحين تحت الضغط ويسألون أنفسهم: "كيف أمنع نفسي من اليأس حتّى لا أغضبَ الله؟". لا، يا إخوتي وأخواتي، ليس هذا هو المعنى المقصود. لا ينهى الله عن اليأس، بل بالأحرى يُعلّمنا أنّه ما من حاجةٍ إليه. لا حاجةٍ إلى أن نياأس.

حين تعجزون عن الاستمرار، حين تشعرون بأنكم تكادون تفقدون عقولكم... تذكّروا ما قاله الأب صفروني ذات مرّة لأحد النساك: "اذهب وأعدّ لنفسك كوبًا من الشاي"، أو ما قاله القديس إسحق السرياني لناسكٍ آخر: "حين تشعر بأنّ الأفكار التجديفية تتغلّب عليك، تُفّ نفسك بجبّتك واستلقِ لتنام". وبلغة اليوم يمكن القول: "خذوا قيلولة". استعيدوا عافية جسدكم، وما إن تستردّوا قوّتكم، تابعوا [جهادكم]. لقد شارك الأب صفروني الناسك ما كان هو نفسه قد اختبره. كان الناسك في ضيافة الأب صفروني وقد حضّر له الأب بعض الشاي والبسكويت بالقليل الذي كان لديه، وإذا رأى الأب الحالة الروحية لهذا الرجل قال له: "عشّ يأسك حتّى النهاية، ولكن عندما تشعر بأنّك تهوي في الهاوية، قم وأعدّ لنفسك كوبًا من الشاي". بتعبيرٍ آخر: أرخ نفسك قليلًا. وحين تستردّ قوّتك يمكنك المتابعة. المتابعة بأية طريقة؟ أتابع وأنا أعرف أنّه في مكانٍ ما، توجد عناية إلهية - حتّى ولو ما زال الأمر مخفيًا عني - وأنا في انتظار أن تتكشف. (...)

في أشدّ لحظات حياتنا قسوةً، لا يوجد سببٌ لليأس، وفقدان الرجاء، والاستسلام للموت بالإغلاق على أنفسنا داخل ذلك اليأس، بل على العكس: في معظم الأحيان - بل ربّما في كلّ مرّة - يمكن لأكثر لحظات حياتنا فظاعةً أن تكون الأثمن. تلك تحديدًا هي اللحظة التي عليكم أن تصمدوا فيها قليلًا بعد. فكّروا في البحار الذي يكون عالقًا على ظهر السفينة حين تضربها موجة هائلة. لثانية أو اثنتين يتوارى سطح السفينة تحت سطح البحر. هل تلك هي اللحظة المناسبة لإفلات العارضة؟ كلاً، حتّى إنّها ليست اللحظة المناسبة لمحاولة الفرار للاحتماء في الحجرة. على العكس، تلك بالتحديد هي اللحظة التي يجب أن نقوم فيها بشيءٍ واحدٍ فقط: أن نتشبّث بالعارضة. حينها تحبسون أنفاسكم

إلى أن تعبر الموجة. ومن بعدها، حين تعلقو السفينة مجدداً فوق سطح الماء، يمكنكم النزول من على سطح السفينة إذا كان ذلك ضرورياً. هكذا هو الأمر في أكثر لحظات حياتنا صعوبةً وكآبةً ومأساويةً. يمكن أن تكون هذه اللحظات هي الأثمن. (...)

لقد تكلمتُ على حياتنا الشخصية، لكن الأمر عينه ينطبق على حياة العالم أجمع. نتحدث عن الزمن الإسخاتولوجي، عن فترة نهاية الأزمنة. (...) أعتقد أن هذه الفترة، بقدر ما ستكون مأساويةً ومفجعة، بقدر ما ستصبح ثمينة، لا بالنسبة إلى كل واحدٍ منا بصورةٍ شخصيةٍ فحسب، بل بالنسبة إلى الجنس البشري ككل، وبالنسبة إلى التاريخ بحد ذاته. ما الذي سيحصل؟ سنرى. لكننا نحيا في الرجاء برّنا. ونسأله أن ينمي فينا ما يعجز الإنسان عن تحقيقه بقوّته الذاتية، وفقاً لكلمة الله نفسه: "غير المستطاع عند الناس مستطاعٌ عند الله".

علينا أن نُكثّف صلاتنا اليوم أكثر من ذي قبل: "يا ربّ، هلمّ واسكن فيّ، وحققْ أنتَ في داخلي الأمور المرضيّة لك". من بين الأمور المرضيّة لله، والتي لدينا حاجةٌ بالغةٌ إليها اليوم هو الإيمان الذي سيحفظنا خلال الأحداث التي قد تصبح على ما يبدو أكثر فظاعةً ولا يمكن تصوّرها. ليس هذا وقتٌ لليأس. بل بالأحرى، اليوم، أكثر من ذي قبل، هو الوقت المناسب للتشبّث بالعارضة إلى أن تعبر الموجة. ومن يدري كيف ستعبر وبأيّة طريقة؟ ولكنّ المقولة الجوهريّة باقية: "أبقي ذهنك في الجحيم ولا تيأس" (...)

مع الثورة الصناعيّة والحرب العالميّة الأولى، نشأ عالمٌ آخر. وفي هذا العالم الجديد نسعى على قدر المستطاع لأن نعيش كما عاش آباؤنا القديسون. نقول: "نشكرك يا ربّ" عندما يكون باستطاعتنا ذلك، وحين لا نستطيع، نحتمل بصبر. وكما اعتاد الأب كليوبا [القديس كليوبا الذي من دير سيهاستريا] أن يقول: الصبر، الصبر، الصبر... فليمنحكُم الله، ويمنح جميعنا، تعزيةً إلهيّةً خفيّةً، تلك التعزية التي تُمكنكم من اجتياز هذه التجارب، تعزية البحار الذي يعرف أن الموجة ستعبر. وأمّا في الوقت الحالي، فيمكن القيام بأمرٍ واحدٍ فقط: التشبّث بالعارضة.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Archimandrite Rafail Noica (n.d.) "Hold Fast to the Rail", in *Sayings of the Romanian Elders*. Retrieved from [Substack](#).